خطاب الهُويّة والاغتراب في " طائر التُّم" لفهمي جدعان

عيسى عودة برهومة *

تاريخ تقديم البحث: 2024/8/12 تاريخ قبول البحث:28 /2024/9

الملخص

تتناول هذه الدراسة خطاب الهُويّة والاغتراب في " طائر التُّم" للمفكِّر الفلسطينيّ فهمي جدعان، محاولة الكشف عن تمثّلات هذه الهُويّة الموزَّعة بين المنافي، وانعكاس هذه التجربة في مسارات حياة جدعان كما ألمع إليها، وتتبع أبرز المحطات في السيرة الفكريّة التي نتناولها بالدرس.

وتهدف الدراسة إلى الكشف عن خطاب الهُويّة لدى باحث وأكاديميّ اكتوى بلهيب النزوح والغربة في بلاد مختلفة، تركت كل واحدة أثراً في مسيرته الطويلة، وتحقيقاً لهذه الغاية–أي غاية تتبع خطاب الهُويّة والاغتراب– انبسطت الدراسة في محاور عديدة، شرعت في المفتتح لمقاربة الهُويّة والاغتراب من خلال تجربة نزوحه وخروجه من عين غزال، متكئة على ما سرده في سيرته الفكريّة، وما أعقبه من تحولات ومنعرجات في حياة جدعان، كتجربته في مخيم اليرموك، والتعليم في دمشق، ثم التجربة الباريسيّة، فالجامعة الأردنيّة، وتَطوافه في الجامعات العربيّة. وارتكزت الدراسة على المنهج الوصفيّ التحليليّ، الذي يسلط الضوء على الظاهرة المدروسة ويحلل مفاصلها للخروج برؤية جامعة، أما منهجيتها فاعتمدت القراءة البصيرة للسيرة، وتعقّب خطاب الهويّة والاغتراب فيها، وكيف تبدّت في تجربة فهمي جدعان.

وخلصت الدراسة إلى: أن سيرة "طائر التمّ" تمثّل خطاباً فلسفيّا سيكولوجياً تشخيصياً لمفكّر امتدت تجربته لثمانية عقود، كانت كوشم على ساعد العصر الحديث، توالجت فيها مقومات السيرة الفكريّة فأبانت عن الذاتيّ دون الوقوع في شَرَك التمجيد والنرجسيّة كما شاع في السير الذاتيّة والغيريّة، ثم إنها تجاوزت حدود الذاتيّ لتتعقّب قضايا الهُويّة والاغتراب والمنفى وما تصادى عنها من جدل في مسائل الفكر والدين والسياسة، وتجاوزت هذه السيرة البوح البكائيّ(الكربلائيّ) إلى الفعل وأخذ العبرة من الأحداث دون الوقوع في شَرَك الوعظيّ والمباشَرة.

الكلمات المفتاحيّة: فهمي جدعان، طائر التُّم، سيرة ذاتيّة، الهُويّة، الاغتراب.

* أستاذ اللسانيات التطبيقية، قسم اللغة العربية بالجامعة الهاشمية– الأردن.

The Discourse of Identity and Alienation in “Tair Al Ttum-"The Swan Bird” by Fahmi Jadaan

Essa O. Barhouma*

Submission Date: 12/8/2024 **Acceptance Date: 28/9/2024**

Abstract

This study examined identity and alienation discourse in “*The Swan Bird*” by the Palestinian philosopher Fahmi Jadaan. It attempted to reveal the representations of this identity distributed among the exiles and the reflection of this experience in the paths of Jadaan’s life as alluded to it, without neglecting the lines that touched on the Palestinian issue in all of his philosophical works that revolved around the Islamic intellectual experience and the conflict between the religious and political aspects, foundations of progress, debate on heritage and modernity, and other of Jadaan’s extensive concerns.

The study intended to uncover the identity discourse of the writer who experienced the torture of exiles in different regions. It expanded over varied axes that include approaching identity and alienation through the writer’s experience of displacement and exit from Ain Ghazal, relying on what he narrated in his intellectual biography and the transformations in Jadaan’s life, such as his experience in Yarmouk camp, education in Damascus, then the Parisian experience, then the University of Jordan, and his tour of Arab universities, and his tour of the world. The analysis implemented the analytical descriptive approach that sheds light on the studied phenomenon and analyzes its details to conclude a comprehensive vision. As for its methodology, it depended on an insightful reading of the biography, tracking identity and alienation discourse in it, and how it manifested itself in Fahmi Jadaan’s experience.

The study concluded the biography of *“The Swan Bird”* represents a philosophical, psychological, diagnostic discourse by a philosopher whose experience spanned over eight decades. It was like a tattoo on the forearm of the modern era, in which the elements of intellectual biography were combined, revealing “the self” without falling into the trap of glorification and narcissism, as is common in autobiographies and alter egos, the trap of preaching and directness. Then, it went beyond the limits of subjectivity to trace issues of identity, alienation, and exile and the controversy surrounding them in matters of thought, religion, and politics. This biography went beyond tearful (Karbalai) revelation to action and taking lessons from the events without falling into the trap of preaching and directness.

Keywords: Fahmi Jadaan, the Sawan Bird, Autobiography, Identity, Alienation.

*Professor of Applied Linguistics, Department of Arabic Language, Hashemite University, Jordan.

توطئة

يصعب على المتمترسين في حقول خاصة كالحقول البحثيّة والأكاديميّة الإفصاح بالمجمل عن منطويات شخصيّة فيما يكتبون، فحتى تناول ما يتّصل بهم يظل محصوراً في الإطار النظريّ البيانيّ العقْلانيّ، أيّ بما هو تنظيرات وتشخيصات لواقع عام، يضعهم في موقع المعاين والمنظّر، وكتابة مذكراتهم للكشف عن جوانب من شخصيتهم وتجاربهم الإنسانيّة، ولعل فهمي جدعان ذلك الأكاديميّ الذي قضى ما يزيد على ستة عقود في البحث العلميّ أراد الإلماع في سيرة" طائر التُّم"[1] إلى ذاته وهُويته وهمومه بعيداً عن جمود النظريات والقراءات، وإعادة خلق الذات واكتشافها والحفر فيها، إذ تمثّل السيرة المساحة المثاليّة لاسترجاع التفاصيل التي يعوّل عليها لإعادة خلق الذات الكاتبة. والذات بمراجعتها نفسها مكتوبة من خلال تعقّب التفصيلات في بناء النص، تكتسب القدرة على فهم السيرورات التي آلت بها لتكون في الصورة اليوم، فكتابة السيرة أشبه بعمليّة مراجعة تعين على الكشف، وأما خطاب الهُويّة فإنّ له أمارات تستدعي من المتلقي استنباطها واستشفاف دلالاتها، وهي قمينة بالإفصاح عن جلّ سمات الشخصيّة ومكنونات هويّتها[2]، فأمّا هذا المبحث فوظيفته تمثّلت في إبراز تمظهرات هذه الهُويّة من ثنايا النص المسرود، الذي وضع فيه فهمي جدعان جلّ انعكاساته، بوصفه الفلسطينيّ المتنقّل والباحث الدائم عن موقعة له، وسيبرز في هذه السيرة اتكاءها على ذاكرة الكاتب والذاكرة الجمعيّة للشعب الفلسطينيّ لبناء صورة كاملة عما مرّ به من أحداث ونقاط مركزيّة مؤسسة لبناء شخصيته. ويقتضي رصد هذا المبحث للتقنيات المستخدمة في بناء نص السيرة/ المذكرات/ الرواية السيريّة ولإحالات الأفكار الواردة، من حيث ارتباطاتها الفلسفيّة والنفسية والاجتماعيّة وغيرها.

صورة مشهديّة لـ "طائر التُّم"

يحق لسائل أن يتقرّى الغرض من كتابة مفكر وأستاذ أكاديميّ لمذكّراته، لكنّ الأكاديميّ الخبير ذا النفَس السرديّ الروائيّ، سيفصح عن مبعث كتابة المذكرات في السطور الأولى من " طائر التُّم"،

(1) طائر التّمّ: حكايات جنى الخُطا والأيام" سيرة ذاتية فكرية للدكتور فهمي جدعان، جاءت متسلسلة عبر فصول متوالية: "برولوغس". "قبل الكلام". " عين غزال". " حجارة رطبة". " الضفة اليسرى". "فيليا". "طائر التّم يفقد الرضا". صدرت في نحو 469 صفحة، عن الدار الأهلية للنشر بعمّان، ط1، 2021.

(2) برهومة، عيسى، "خطاب الهوية في غربة الراعي لإحسان عباس"، *المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها*، جامعة مؤتة، الكرك، مجلد 17، عدد 4، 2021، ص133.

ليدرأ فيما يشبه الحديث الداخليّ الشبهة عنه، بمعنى أنه يعطي الحق لذاته بكتابة سيرة أو رواية سيريّة عنه، حاله حال من سبقه من المفكّرين والمثقّفين والفلاسفة، ويقود الأسباب في سبيل ذلك، كأنما يمارس دفاعاً من نوع خاص عن الحق الذي يدفع رعيل المشتغلين طويًلا في الحقل الجاف المجرد للولوج نحو المكاشفات الوجدانيّة المتسلّحة بلغة عالية متراخية لا تتوسّل التزمت المطلوب في صياغة الأفكار وكتابتها كما المعتاد، فيعوّل إلى سببين هما: أولهما أنّ التجربة التي خبرها بلغت حدّا من العمق والاستبصار تمكنه من بسط القول في هذه التجربة من خلال السيرة، لذا كان لزاماً العبور من الجامد المتغيّر ذي المعاني المجردة نحو الوجدانيّ والذاتيّ لإتمام هذه التجربة الإنسانيّة التي تزاحمها الانشغالات الأكاديميّة والبحثيّة، وهو ليس إفكاً بقدر ما نعني به أفقاً يتأسى أصحابه خطوه أملاً في صياغة إجابة تعين السائلين، ومع نبل الفكرة إلا أنها لا شكّ أسيرة هذا التعنّت، ولما تحيّنت الفرصة للمفكر بأن يتحلل من ربطة عنقه، ها هو أخيراً يكتب سيرة صافية صريحة، صراحة الأفكار التي كتب عنها، مذيّلاً اسمها باسم طائر حرّ نبيل يختزل في أسطورته النبل والسمو، ويحمل ملمحاً هوياتياً من ناحية سيكولوجيّة تتعلّق بالهجرة الدائمة نحو البعيد والمتحوّل، ففهمي جدعان وليد القرية البعيدة في فلسطين قبيل سنوات النكبة، ابن الجيل الأول الذي توزَّع بين المدائن والأراضي بحثاً عن أرض تتسع له ولغيره، بعد أن أصابتهم لعنة الاحتلال والأيدولوجيات المتناثرة، وللحق فإن سطراً واحداً بسيطاً يعرّف بمكان الميلاد وسنته ومكان دراسته لاحقاً لكفيل ببناء مخيّلة صعبة عن مشهد اللاجئين الفلسطينيّين الأوائل وعن بقية المشهد.

بهذا المفتتح نُطلّ على غاية فهمي جدعان في أن تكون سيرة يتماهى فيها الذاتي بالفكريّ، دون أن يطغى أحدهما على الآخر، فجاءت سيرته مكتنزة باللوحات المشهديّة لصاحبها، تتوالج فيها الذات الفرديّة بالهُويّة الجمعيّة التي يشترك فيها فلسطينيّون لا يشوبهم الشك عمن يكونون، ولا يعتريهم الحرج، لأنّ طيور التُّم سامية وفيّة ومهيبة لا تنصاع، تعرف ذاتها ولا تتحرّج.

وثَم محطة أخرى تبدو أكثر تزمتّاً لدواع لا فكاك منها، يفضي هذا الحديث إلى إشارات تنظيريّة ضروريّة في تعريفات السير ومراميها، فالغيريّة هي بحث عن الحقيقة في حياة إنسان وكشف مواهبه وأسراره من ظروف حياته التي عاشها، والأحداث التي واجهها في محيطه والأثر الذي خلّفه في جيله، وتحديد الفوارق بين نوعيها الغيريّ والذاتيّ، من جهة أخرى، لا يكون من حيث المادة الموضوعيّة فحسب، بل من حيث التقنية والوظيفة أيضاً. وكل شكل "سيرة" إلى المدى الذي تبدو فيه مسجلة لحياة

واقعيّة، ولكن كل شكل كان مميزاً في الاستراتيجيات التي انتهجها المؤلفون وفي الغايات التي احتذوها في أعمالهم، لذا كانت السيرة أقرب إلى التأثير الدراميّ من كل ألوان التاريخ الأخرى، وكانت أكثر إثارة للقارئ من كل كتابة تاريخيّة غيرها، حيث تجيش بالانفعالات والعواطف التي تثور في أعماق البشر، والتي تتجرد منها الواقعة التاريخيّة كحدث، وإن كانت من عمل الإنسان ذاته[1].

لقد أسس فهمي جدعان الأحداث والتواريخ العامة في الذاكرة الشعبيّة على الإنسان الفرد، وعرض الأحداث التي تشابكت بين الذاتيّ والهمّ الجماعيّ لشعبه، فكانت سيرة كأنها شهادة عصر لنازح فلسطينيّ وأكاديميّ غزير المعرفة والإنتاج في حقول الفكر والفلسفة. فالصفحات التي ضمت هذه الجزئيّة تكاد تكون سِفراً خاصّاً عن تاريخ قرية عين غزال وأهلها، والصوت الفرديّ فيها غاب لصالح الجمعيّ الخاص بجماعة تحاول الأرشفة أحياناً محو إنسانيتها وتحويلها إلى بيانات حسب، أي هو تأريخ إنسانيّ بالدرجة الأولى تدعمه الإحصائيات والحكايا، ليتكامل فيه الوجدانيّ التاريخيّ البعيد عن الأسطرة المصطنعة والبعيد في ذاته عن محاولة درّ العواطف.

يتكشف مما سبق أي لحظة كسر فهمي جدعان ما ألفه من بحوث أكاديميّة وما درج عليه في كتبه، مجموعة من السمات والميزات التي انعكست في سيرته:

أولها: أنها لم تقتصر بحسب من كتب عنها وبحسب من يقرؤها، إذ لم يحتلّ الحديث عن نفسه أجزاء كبرى، بل اتكأ في بعض جوانبها على ما رواه أخوه، ما يعني حضور أصوات جديدة تنضم إلى صوته لتكسر القالب السرديّ المعتاد في السيرة، ولتعاضد ذاكرته غير المكتملة حول مرحلة لم يكتمل الوعي فيها.

ثانيها: تراوح هذه الكتابة بين سيرة غيريّة وذاتيّة، للجمع وللفرد، وخاصة حين نقف أمام تلك الصفحات التي كتبها عن أمه، هذا الكائن "اللامرئيّ" كما يسميه الكاتب، والذي سيحمل في الآن نفسه مسؤوليّة الجميع، أو حين يكتب عن قريته عين غزال التي هرب منها صبياً، رفقة سكانها في حلكة الليل، حتى لا تكتشفهم عصابات الاحتلال، تلك القرية التي لن تغادر يوما ذاكرته[2]، وما ذكره أيضاً عن الملامح

(1) ينظر: عبد العزيز شرف، *"أدب السيرة الذاتية"*، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان، القاهرة، 1992، ص4.

(2) بوطيب، رشيد، *"طائر التّمّ.. "حكايات جنى الخُطا والأيام"* لفهمي جدعان أو تاريخ من لا تاريخ لهم، موقع لكم، المغرب، 3/ مارس/ 2021.

الشخصيّة لبعض الرموز الذين عاشرهم من أمثال عبد الرحمن بدوي، حيث كان "بدوي"، كما يقولُ جدعان، يأتي على ذكر بعض المشتغلين في الفلسفة والاستشراق، ولا يكفّ عن توجيه النقد اللاذع هنا وهناك كما حدث مع الطالب الذي التقى بدوي للحديث عن ترجمته أعمال محمد أركون، فتطال الأخير نيران بدوي، وهي إشارة إلى المزاج العام الذي يصف بدوي، أما على المستوى الشخصيّ فيسرد جدعان موقفاً ينبئ عن سجيّة لدى عبد الرحمن بدوي وهي حرصه على المال، فروى جدعان في أحد اللقاءات من مفاجأة نزلت به بعد احتسائهم لأكثر من مشروب، لاحقاً ينفرد بدوي بأن يخرج قلماً من جيبه، ليسجّل على فاتورة المقهى الأرقام، ثم يردف مخاطباً جدعان: عليك أن تدفع لي ثمن ما شربته، ورغم أنّ البخل قد لا يكون من الشيم الطيبة في الرجال، ومنفّراً في الغالب، لكن هذه الحادثة لم تقلل من مكانته في مخيلته، كما يؤكد أنه لم يحاول في يوم ما الاصطدام به، أو محاولة مجادلته، ولذلك بقي يحظى بمكانة لديه، ولذلك يختتم حكايته معه بالقول: «بدوي شخصيّة فذّة، ظريفة، غريبة، ساخرة ، عنيفة في ازدراء الآخرين، لا يكف عن النقد، ويبغض جمال عبد الناصر بغضا لا حدود له"[1].

ثالثها: انطواؤها على لغة أدبيّة فريدة، إذ نلتقي في الكتاب بالروائيّ وبالمؤرخ وبالفيلسوف، ونتوقف أحياناً في دهشة أمام لحظات شعريّة متوهجة، لكن ما وراء كل ذلك، وما يستوقف كل قارئ للكتاب، هو أدبيته، أسلوبه المتفرد، الذي نشعر كما لو أنّ موسيقى داخليّة تسكنه وتحركه وتنساب من خلاله، فلا نعرف هل نحن أمام سارد كبير أو إزاء موسيقيّ يؤلف ألحانه في دقة متناهية[2].

رابعاً: تميزّها في كسرها القوالب المعتادة عن السرديّة الفلسطينيّة خاصة، فلم يكن الصوت بكائياً أو عتابياً، بل أرادها جدعان سيرة إنسان وعى تجربة النزوح وقاومها بالعمل والاغتراف من مناهل المعرفة والكشف عن محطات ذاتيّة تركت سيماءها على تضاريس حياته، فالكتابة هي المساحة المنفتحة التي يمارس فيها الكاتب ما يشبه الاعترافات والتداعي الحر، إلا أنّ سيرة جدعان جاءت واثقة متوافقة مع سمات الطائر الذي حمل عنوانها من حيث الثقة بمن يكون والإعجاب بكينونته.

- بين الهُويّة والسرد:

(1) جدعان، *"طائر التّمّ"*، ص220.

(2) بوطيب، *"طائر التّمّ.. "حكايات جنى الخُطا والأيام" لفهمي جدعان"*، 2021.

يُعرف بول ريكور(Paul Ricour) بأنّه من أوائل من تحدثوا عن مفهوم الهُويّة السرديّة، وخاصّة الشكل السّرديّ بوصفه الأنموذج الأمثل لبناء الهُويّة السّرديّة، مفترضاً أنّ "الهُويّة السرديّة"، سواء أكانت للفرد، أم لجماعة تاريخيّة، تتعيّن بوصفها هُويّة الشيء الذي يظل نفسه في التغيير وخلاله، فهي الموقع المنشود لتفاعل السرد والخيال. وبهذا المعنى، تتعين الهُويّة السرديّة بوصفها ذلك الضرب من الهُويّة الذي يكتسبه الإنسان من خلال وساطة الوظيفة السرديّة، فالسرد يؤلف الخواصّ الدائمة لشخصيّة ما، هي ما يمكن أن يسميها المرء هويته السرديّة، ببناء نوع من الهُويّة الديناميّة المتحرّكة الموجودة في الحبكة التي تخلق هُويّة الشخصيّة.[1]

المتتبع لسيرة فهمي جدعان يلحظ أنّ هُويته الجمعيّة وشخصيّته اندغمت في تلابيب البحث والتنظير، فكان السرد و "سيرنة" الهُويّة الفضاء المثاليّ لإبراز ارتباط ذاته بهويّته الفلسطينيّة، فما كان قد أشار إليه عن القضيّة الفلسطينيّة كانت إشارات مكثّفة ومركّزة، فلا نكاد نقرأ غير مثال وحيد له شأن بالموضوع الذي يتحدّث عنه، ففي كتاب (رياح العصر) يستحضر جدعان القضية الفلسطينيّة في ضَوء مركزيّتها وسط ما يسمى "صراع الحضارات" وبوصفها ذات ارتباط وثيق بصراع الهيمنة الليبراليّة الحديثة وأداة تستخدم لتسويق ما يسمى بـ "الإرهاب"، لذا فذكْرها جاء على سبيل الأمثولة وتأكيد الفكرة، والإشارة إلى غياب مفهوم العدالة الذي فرق بينه وبين المساواة في الموازين الليبراليّة والحداثة، وما مأساة فلسطين إلا مثالاً حيّاً وقوياً على غياب العدالة وازدواجيّة المعايير لدى هذه الأيدولوجيات المهيمنة، لكنّه حين يسترجع فلسطين المرتبطة به من ناحية سرديّة، فإنّ فلسطين في النص السرديّ هي المركز لا المثال، وقد صاغ هذه البؤرة المركزيّة بسخاء لغويّ مشفوع بطاقة سرديّة قل نظيرها في هذا الجنس الأدبيّ، فجاءت متناغمة بين العمق في الرؤية والدثار الأسلوبيّ الفريد.

إنّ مقاربة الذات تتجلى في الجهة الثانية لفلسفة اللغة، أي لجهة التلفظ لم يثر تفكيراً خاصاً في التغييرات التي تطرأ على ذات فاعلة قادرة على أن تسمي نفسها وهي تعطي العالم دلالته، والحال أنّ ما أغفل لم يكن عدّها بعداً من أبعاد عديدة، ولكنه كان إشكاليّة بأكملها، وهي إشكاليّة الهُويّة الشخصيّة التي لا تستطيع أن تتمفصل إلا ضمن البعد الزمنيّ للوجود الإنسانيّ[2]، نعم لقد انتظر جدعان ما يربو

(1) ريكور، بول، *"الزمان والسرد"*، ترجمة سعيد الغانمي، الجزء الثالث، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت 2006، ص251.

(2) بول ريكور، *"الذات عينها الآخر"*، ترجمة: جورج زيناتي، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2015، ص250.

على ستين عاماً ليفيض سرداً يتخلّق من جديد ويومض إلى مطارح عذراء لم يسبق أن فضّ بحثها لانشغاله بمشروعه الفكريّ ودراساته الفلسفيّة، فلم يحضر صوته الذاتيّ حرصاً على الأمانة الأكاديميّة كما يمكن أن نعلل، وحرصاً على السير ضمن متوالية متصلة ومنتظمة في النظم الفكريّ، لا تعكّرها الأصوات الفرديّة الشخصانيّة، التي بحضورها تفقد البحوث أحياناً بعضاً من تماسكها المنهجيّ، وقد تسفل بها في دَرْك الهوى.

المستويات الهوياتيّة وتواترها في سيرة فهمي جدعان من خلال ما كتبه عن نفسه:

سرد فهمي جدعان في خمسة أسفار –بدءاً من السِّفْر الأول– ما هو هوياتيّ، مبتدئاً بالبوح عن تركيبات هذه الهُويّة ضمن الإطار الأنطولوجيّ[1]، فهو "آخر العنقود" بين عائلة ممتدة متألفة من ذكور وإناث هو آخرهم، أمّا محطات الهُويّة تاريخياً [2]، فهو ابن قرية عين غزال في فلسطين التي قاتل رجالها حتى الرمق الأخير، وهو حين يتحدّث عن ارتباطه الهوياتيّ التاريخيّ الجغرافيّ يستعين بحكم

(1) يمكن أن تُعرف الهوية، على المستوى الأنطولوجي، بأنها وحدة الكائن المطالعة. ذاته، وهي تعبر بهذا المعنى عن استحالة الفصل منطقيا وميتافيزيقيا بين الوجود والماهية. الكائن هو الوجود، إن هذا الامتياز لم يُغط، في الواقع، إلا للوجود بما هو وجود، واللان الذي لا يمكن أن يتصور إلا بما هو وحدة لا تكون قابلة للانقسام إلى ماهية ووجود، غير أن الهوية هي، أيضًا، ضرب من التجلي لعمق موحد في الكائن خلف ظواهر متغيرة، والمماثل لذاته، ثابت لذاته، ينتفي في إطاره كل اختلاف واستمرار الأضداد، بحسب تعبير هيغل. ويمكن أن نقرر، على المستوى المنطقي، أن مبدأ الهوية يفيد المساواة والمماثل للهو عينه، إنه في المنطق الكلاسيكي، مبدأ أساسي ينبثق منه، بالإضافة إلى ذلك، المبدآن الآخران وهما: مبدأ عدم التناقض والمبدأ المرفوع، وفي هذه الحالة، فإن المساواة القائمة تصبح ثابتة ووحدة أصلية، وتعبر بوضوح عن وحدة الكائن والفكر، وقد أكد بار منيدس»، في الشذرة الثالثة، هذه الوحدة بالقول: «إن الفكر والكائن شيء واحد. يمتزج القول والفكر في واقع واحد وثابت، يُدرك الفكر بصفته كلية أنطولوجية، وَوَحْدَهُ باستطاعته أن يكشفها،

تسمح لنا هذه الشذرة الثالثة بالدخول مباشرة إلى عالم الهويّة، حيث تركز التفكير الفلسفيّ نهائيا إلى حد «نيتشه». إن هوية الكائن والكلمة والفكر احتكمت إلى الخيار الذي وضعه بار منيدس» في الأصل بين الوجود واللاوجود، بمعنى الاستحالة القطعيّة لدرب اللا وجود بصفته لا مفكرا فيه وغير مسمّى، وتعبر مقولة إنّ اللاوجود غير موجود بصورة جوهريّة، عن أنه لا يوجد تفكير إلا تفكير الهويّة، وأن الاختلاف الأنطولوجي غير مدرك، وأن الغيرية هي بالضرورة مستحيل تحققها، وأن الوجود، في نهاية المطاف، خال من كل مشاركة – ولو جزئيّة – للاوجود، وللاختلاف والغيريّة؛ لأنه يكون مهددا بالاندثار، ينظر: الهوية العربيّة بين التفتيت والترميم، مجموعة مؤلفين، ورقة بعنوان: *مقاربة تحديثية في الهوية والديموقراطية*، التريكي، فتحي ، منشورات وزارة الثقافة الأردنية، عمّان، 2023، ط1، ص70

(2)التريكي، *مقاربة تحديثية في الهوية والديموقراطية*، ص71

العمر والذاكرة بذاكرة أخيه المكتوبة في "مخطوطة" ليفصّل في هذا المكان، غير مبدٍ ملامح اغتراب، أي الاغتراب الهيجليّ السلبيّ[1]، وفي كتابته التأسيسيّة لهذه الهُويّة على هذه الشاكلة عبر استعارات من ذاكرة أخرى، خروج عن المتعارف عنه في كتابة السيرة ودخول في مسألة الهُويّة ضمن الإطار السيكولوجيّ، فيمكننا أيضاً، في هذه العمليّة التفكيكيّة للهُويّة، أن نعالج التصور السيكولوجيّ، حيث تكون الهُويّة مكتسبة ويُعمل الدهر وظروف الحياة أثارها فيها ؛ لأنها تُكتسب منذ الطفولة، فتأخذ نسقاً منتظماً ومتدرجاً لمجموعة من الثوابت المعرفيّة والعاطفيّة، ويعطي هذا النسق الخاص بالهُويّة للفرد إمكان تكونه في وحدة تقييميّة بالنسبة إلى ذاته وفي تعالقاتها مع الآخر وقضايا الوجود.

ولها في هذا المستوى ثلاث وظائف أساسيّة يضمنها هذا النسق الخاص بالهُويّة: وظيفة تنمويّة ودفاعيّة للشخص، وظيفة تصرف في العلاقات بين الأفراد، وظيفة انتظام النسق الخاص بالهُويّة انتظاماً ذاتيّاً[2].

وعلى وتيرة هذه الأنساق تبدّى البناء الهوياتيّ السيكولوجيّ في السِّفْر الأول من حيث تقسيمه هذه العلاقات ومراقبتها وتطوّرها في ذاته:

بداية: تحضر العلاقات السابقة لوجوده، علاقة الأم والأب والعمّة، وهيمنة الظل البطريركيّ فيها ليغيب شبح والدته العاملة في الحقول، وما عاينه وشهده من صراعات في هذه العلاقة، والتي بدا أن انسحاباتها وانحيازه إلى جانب والدته قد أبان عن نفسه في لحظات لاحقة سيجيئ على ذكرها.

(1) يرى هيجل بأن الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، فهو ينتمي للجماعة التي يعيش بين ظهرانيها، فالفرد عندما يعيش في دولة ما، فهو جزء منها كالعضو في الجسد الحي، فهو "جزء" لا يتجزّأ من "الكل" والدولة إنما هي الكلّ الذي يجمع هؤلاء الأفراد، وبالتالي تشكّل كيانًا واحدًا ينتمي إليه الفرد، وباجتماع هؤلاء الأفراد ينتج "الناتج الإنساني" المهم وهو "البناء الاجتماعي" والمتمثّل في علاقات المجتمع وعلاقة الفرد مع المؤسسات في المجتمع والدولة، وهذا البناء الاجتماعي إنما هو كيان "عقلي" أنتجته عقول الناس ولم يأتِ فجأة، وبهذا المنظور النفسي الاجتماعي والسياسي أيضًا لماهية المجتمع والفرد مهّد هيجل الطريق حول علاقة الفرد بالمجتمع مختزلًا في آن واحد منظوره الخاص بالهويّة وماهيّتها، فهي التمثيل الذي يمثّله الفرد في هذه الدولة التي يولد ويعيش ويموت فيها، وعليه فإن هذا الفرد يتوحّد "تلقائيًا مع المجتمع والدولة علاقة فوريّةً وكاملة، فبهذا التأسيس يفهم ما الذي يحصل لحظة وجود شرخ في هذه التصور، أيّ فقدان الاندماج والتوافق بين الفرد والمجتمع، فالاغتراب يحدث عندما لا يتوافق الفرد مع المجتمع، أي عندما يشعر الفرد بأن "البناء المجتمعي" خارج ومنفصل عنه، بينما من المفترض أن يكون الفرد في الوضع الفعلي له متفقًا مع طبيعته الجوهرية، ينظر: العتيبي، طارق موسى ،" *الاغتراب –دراسة تأصيلية فلسفية علمية"*، ط1،دار الكتاب الجامعي للنشر والتوزيع، الرياض، 2018، ص12 وص32

(2) *الهوية العربية بين التفتيت والترميم"*، ص74

أمّا ما هو مؤثر في سيكولوجيته لاحقاً، فهو ما آل إليه أمر تربيته في سنواته الأولى في حضن زوجة أخيه، فهو إذا يستحضر بناءه الذاتيّ، متسائلاً عن جذور خَصْلة القلق والخوف التي يرى نفسه واقعاً فيها كلّما استبدت المواقف، يحيلها إلى تأثير زوجة أخيه أم مدحت[1]، ما يعني أنّ النتيجة النهائيّة لهذا الانتظام في البناء الهوياتيّ السيكولوجيّ بعد مراقبة التفاعلات الكثيرة بينه وبين الآخر، وبين الآخر والآخر، أفرزت في صيغتها شيمة الخوف التي صارت جزءاً منه!

تجربة النزوح والتبدلات الهوياتيّة.

أولاً: عين غزال – الحاضنة والنشأة

بالعودة إلى تعالق مفهومة الاغتراب والتشظّي والشَّتات، استطاع فهمي جدعان قهر هذا الاغتراب السلبيّ والانفصال القسريّ عن بلاده، حتى إذا تفتّح وعيه، ألفى نفسه في خيمة سيصف عالمها لاحقاً، وسبق هذه الانثيالات استعادة لتجربة النزوح الأولى، التي رأى فيها عاملاً في صياغة سجيّة باتت اعتياديّة بالنسبة إليه، أي عندما يتنقّل من مكان إلى آخر بما تقتضيه الحاجة دون كثير أسف، فالنزوح الأول لجدعان، بدأ من عين الغزال حتى وصوله إلى عمّان التي لم يحطّ رحاله فيها طويلاً، إذا اختارت السلطة المتمثلة بأخيه الأكبر وقتها أن يذهب هو وركب من عائلته نحو سوريا، ليستقّر قريباً من حارة اليهود في مدرسة الأليسانس، وفي هذا الهجوع الأخير يفصح فهمي عما عاينه في ذاته من آلام روحيّة مستبدة خفّفتها شهامة المضيفين الجدد ونبل أخلاقهم ، وخففتها الجهود التي قامت بها الأمهات بغية التزود بمخصّصات رعاية أكبر لأطفالهم والتخفيف[2]، وهو ما يذكّر تقريباً بما سمّاه هيجل(Hegel) "قهر الاغتراب" الذي حاول الفلسطينيّون القيام به في أثناء نزوحهم الأول من محاولات تكيّف واندماج بالمحيط المضيف، ومن معاني قهر هذا الاغتراب: ما وصفه بمرحلة التسليم وفي هذه المرحلة، أيّ بعد أن يصبح الفرد غريباً عن البناء الاجتماعيّ فإن هُوّة تتكوّن لتفصل الفرد عن كُليّته، والفرد هنا يقهرها عن طريق وعيه بكُلّيته التي يريد تحقيقها، لذا فإنه يتخلّى عن ذاته من أجل الاندماج مرة أخرى مع البنية الاجتماعيّة وعندما يتحقّق هذا الاندماج يكون أكثر وعياً، ما يعني أنّ هذا

(1)*"طائر التم"*، ص58–ص60.

(2)*"طائر التم"*، ص99.

التخلي أو التنازل أو التسليم مقصود من الفرد لأنه يحول دون وجود الاغتراب وهذا هو قانون نفي النفي عند هيجل[1]

لكن هذا القهر ما يلبث أن يذوي حين العودة من العالم الخارجيّ إلى حدود الخيمة فيصفها في نصٍ أدبيّ صادق يقطر مرارة وألماً: "للخيمة عالم ذو معنى وذو حدود، حين تأتي إليها من (المدينة) تأتي إلى الفراغ، إلى غياب الأفق، إلى مقامات افتراضيّة لا أطر فيها ولا معالم ولا مال تسيجك بغطاء ذي لهب لا يطاق في الصيف. وتتزيا بثوب كله خروق تنهال منها المياه ونصرها وتقلع أخدودها كالأعاصير في الشتاء. وحين تنتقل من خيمة إلى أخرى تلقاك القنوات الغارقة في المياه الموحلة. وإذا صادفتك حفرة وانزلقت قدمك أو قدماك فيها وعلقت في الطين خلت أنك في ليلة لا غد، وحين يكون نعل حذائك مثقوباً والدم يتفجر من قدميك والطين يتخللهما، تحس أنّ العالم كله قد تخلى عنك، وأن الثقب في الحذاء أو في القدم قد أصبح ثقباً في الوجود، الخيمة عالم منقوص يفتقر إلى كل معاني الوجود، يفتقر إلى الحياة وإلى الغبطة والفرح، وينتزع منك ضَوء النهار وحب الحياة ويغرس في ضلوعك الوجع وانكسار الروح، والخيمة في ذاتها قبر للنفوس التي تفتقر إلى العون النفوس الضعيفة، النفوس التي تحتاج لمن يقيمها على قدميها ويعززها المجابهة الحياة. الخيمة كائن بلا حراسة. لا قيم، لا معيل، لا دولة، لا وطن للخيمة بابان، بل فتحتان، إحداهما تأخذك إلى العدم.. والثانية تأخذك إلى الوجود..... حتى تقهر قدر المخيم البائس ليس أمامك إلا أن تكون بطلاً رواقيا!"[2]

يُذكّر نص الخيمة الذي يورده بما ينطوي عليه من لغة مكثّفة تمارس انتقالاً من الخاص إلى العام، ومن الخيمة ينتقل تأريخ خاص في الصفحات التالية لمسألة المخيّمات، المخيّم الذي بات جزءاً من الذاكرة والهُويّة الجمعيّة الشخصيّة لكل فلسطينيّ زامن النكبة، ولكل فلسطينيّ أكمل رحلته في الانتقالات القسريّة والاختياريّة، هي الأرض التي سقطوا فيها بعد خروجهم من الفردوس الفلسطينيّ، يذكّر النص بما هو عليه عن المخيم بما ورد على لسان أم سعد في الرواية المعنونة باسمها للروائيّ الشهيد غسّان كنفاني، حين أورد اسم المخيّم مترادفاً بالحبس، وبأوصاف المحبوسين، فالمخيّم كما يجادل غسّان، ما هو إلا خُدعة يوضع فيها اللاجئون، وما من فارق بين سعد ابنها في قضبانه وبين تلك "الحبوس" المجتمعيّة والمحيطة بابن المخيم وبين تلك القضبان، كان في نص غسّان كسر لكل الأوهام

(1) *الاغتراب –دراسة تأصيلية*"، ص34.

(2) "*طائر التم*"، ص102 –ص103.

الي أسبغها المخيم بما ينطوي عليه من عمران، فكل هذه المزهريات والشوارع والأزقة ما هي إلا مرايا تختزل في داخلها معنى السجن[1]، وبهذه النظرة المأساويّة التي رسمها غسّان كنفاني، يرسم فهمي جدعان العالم من هذا الثقب الأسود، لكن لاحقاً وفي سياق مختلف ومن ثقب جوفة الخيمة في المخيم المعادل الموضوعيّ للنزوح والنفي والغربة، من ثَم يروي جدعان التاريخ اللاحق المتصل بفلسطين: من مثل قرارات التقسيم، والإضرابات التي خاضها الناس احتجاجاً على كل القرارات الظالمة التي تقرّها الدول العظمى بشأن مصير المهجّرين، وهو بين هذه الفضاءات يتنقل ليعود إلى حكايته الخاصة ممارساً تقنية الاسترجاع، ففهمي جدعان لم يلتزم بما هو متعارف عليه تاريخيّاً وفلسفيّاً وإنما دار فيه ضمن إحالة أدبيّة[2] ولما أحاله إلى هذا الشأن، كان أن وضع نفسه بين طريقتين لعرض الأحداث، فعرض الأحداث في العمل الأدبيّ يمكنه أن يقوم بطريقتين: فإما أن يخضع السرد لمبدأ السببيّة فتأتي الوقائع متسلسلة وفق منطق خاص، وما أن يتخلى عن الاعتبارات الزمنيّة بحيث تتابع الأحداث دون منطق داخليّ، ومن هنا جاء تمييزهم بين المتن والمبنى[3]، وفي سيرة فهمي جدعان خضع النص للطريقة الثانية، من حيث القفز بين المدد الزمنيّة وارتباطاتها بالجمع والمفرد، ومما رصد أنها لم تتقيّد بنسق معيّن، بمعنى أنّ الأحداث سواء أكانت متأخرة أم متقدمة، فلم تقتصر على طرف معيّن، فهو إن رأى أنّ من الأجدى ذكر حدث جماهيريّ أو فرديّ متقدم أو متأخر فسيفعل ذلك، ضمن اعتبارات قدّرها هو.

المحطّة التالية: خطوات متعثرة قبيل الولوج إلى اليرموك

لم يحرص فهمي جدعان على أن يُدير القول على العادات والتقاليد الفلسطينيّة، فليس من أهداف سيرته، خلا ما ذُكر في السِّفر الأول من عادات المشاحنات بين الفلسطينيّين لأتفه الأسباب،

(1) ينظر: كنفاني، غسّان ،"*أم سعد*"، ط1، دار منشورات الرمال، قبرص، 2013 ، ص18

(2) الزمن في الأدب هو: الزمن الإنساني... إنه وعينا للزمن بوصفه جزءًا من الخلفية الغامضة للخبرة أو كما يدخل الزمن في نسيج الحياة الإنسانية والبحث عن معناه، إذن لا يحصل إلا ضمن نطاق عالم الخبرة هذا، أو ضمن نطاق حياة إنسانية تعتبر حصيلة هذه الخبرات وتعريف الزمن هنا هو خاص، شخصي ذاتي، أو كما يقال غالبا نفسي، وتعني هذه الألفاظ أننا نفكر بالزمن الذي نخبره بصورة حضورية مباشرة: القصراوي مها، "*بناء الزمن في الرواية العربية*"، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2004، ص25

(3) بحراوي، حسن ، "*بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)*"، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1990، ص107 .

والانحيازات القائمة على مبدأ العائلات الكبيرة، فلو قارنا هذه السيرة مع غيرها من السير الفلسطينيّة كسيرة إحسان عباس مثلا، لوجدنا سيرة فهمي جدعان قليلة الالتفات إلى المكون الاجتماعيّ الفلسطينيّ وذكر العادات والتقاليد باستثناء التركيبة الطبقيّة للملاكين والفلاحين قبيل النكبة والعمال والعائلات الكبيرة كالحسيني والنشاشيبي وأبناء عائلات متقاتلة، في حين احتشدت سيرة إحسان عبّاس بتفصيلات عديدة عن هذا الموروث الشعبيّ من تصوير لجوانب أخرى من حياته التي كان يشيع فيها ذيوع الحكايات الشعبيّة كسيرة تغريبة بني هلال والشاطر حسن[1]، أما في سيرة فهمي جدعان فقد حضرت سيرة الغولة ضمن دراسة أسباب الخوف والقلق الذي يحاول تفسيره، إذن فهو إخضاع لأثر الشعبيّ في النفسيّ، وعودة مرّة أخرى للملامح الهوياتيّة من نواحٍ سيكولوجيّة يحاول فيها استقراء ذاته التي انبنت من خلال ما مرّ به وسمعه وعايشه في حياته.

يعرض فهمي جدعان في سيرته مراحل مفصليّة، كالذهاب إلى مخيّم اليرموك، والتحاقه بالمدرسة الأرثوذكسيّة، إذ كان لهذه التجربة أثر جوهريّ في تجربته الأرثوذكسيّة بالنسبة إلى الأطر الجنسويّة الجندريّة، أي من ناحية الهُويّة ضمن إطارها الجنسيّ، ففيها يقول إنّه قد أصيب بما يسمّى ب "حمى الجذب الجنسويّ" أيّ أنه عاين فيها الاختلاط، الأمر الذي انضاف إلى تكوينه الهوياتيّ السيكولوجيّ في تعامله مع الأمر، وفي مسألة كسر القالب الشعبيّ الموروث الذي أشار إليه باقتضاب، عن علاقة المرأة والرجل في العقل الشعبيّ الفلسطينيّ[2] من منطلق جنسيّ اجتماعيّ، لكن كل ذلك سيتبدّل بعد قصة حب بائسة ذكرها، ومع مقابلته شريكة عمره في أثناء إقامته في عمّان أستاذاً في الجامعة الأردنيّة.

أما المسائل الأخرى الحاضرة في أذهان البيئات المحافظة: فهي مسألة تقرير مصير الأخت بيد أخيها الكبير واحترام الصغير للكبير وعدم إمكانيّة عصيان أوامره بحكم العمر، وهي ما أشار إليها بقصة طويلة في ذكره الأحداث التي يرى فيها تفتحاً للملامح الواضحة من شخصيّته[3]، لكن المتابع حتى السطر الأخير، سيتبين صوت أسى يتكرّر في مسألة الشَّتات الفلسطينيّ الممتد في العائلة الواحدة، وخاصة إذا ما تعلّق الأمر بالفرد الأقرب إلى قلبه، في إشارة إلى طبيعة العلاقات وتقسيماتها في

(1) "*خطاب الهوية في (غربة الراعي) لإحسان عباس*" م س، ص. 131–162.

(2) "*طائر التم*"، ص130– ص131.

(3) "*طائر التم*"، ص147– ص149.

العائلات الكبيرة كثيرة الصبيان والبنات، لقد استطاع جدعان بناء مقاربات بين تداعيات الأزمات المتلاحقة والحكي عن ظلالها الملقاة على علاقات الأفراد المشتتين، وعن لحظات الخروج من القمقم المقيم فيه.

محطة اليرموك، منعطف حادّ

يعود بنا الحديث إلى تحوّل جديد من حياة فهمي جدعان، أيّ الانتقال بُعيد إنهائه الدراسة في المدرسة، ليسكن في مخيم "اليرموك"[1]، والمخيم بما عليه شبيه بالخيمة حين يجمع التناقضات في جوفه، تناقضات السياسة والناس والأحزاب، وهي تناقضات تطال كل ممكن، أي تناقضات تحاول جذب الأتباع إليها.

مع ذلك فلهذه التناقضات عذرها، فالمخيّم بوصفه حالة إنسانيّة معزولة تضمّ في بطنها بشراً غير مرحّب بهم، ينبغي له أن يؤسس لنفسه أنظمة وجماعات خاصّة تحلم بالخروج من ربقة الواقع الصعب، فهذه التيارات السياسيّة ما هي إلا وليدة الظروف والرؤى المتضاربة المتفقّة على هدف واحد وهو: تغيير الواقع والخروج من بوتقة العدم والنسيان إلى الوجود، أمّا الجزئيّة في هذا الشأن والتي طالت جدعان وجعلته في موقف الاختبار ومحاكمة أفكاره، فهو ما أورده عن تلك التيارات السياسيّة التي حاولت جذبه إليها، وإلى السطور التي أسفرت في دواخلها عن تفتحات ذهنيّة مفكر لا يقبل بأي منظومة جاهزة من غير أن يقلبها من كل جانب، فتراه يسوق هذه الحادثة للحديث عن نفسه: لماذا تقول إنّ الديمقراطيّة كفر؟ هي تعني فقط أن يتولى الشعب حكم نفسه وألا يتولى أمره حكام مستبدّون ... دون أن أدري كنت فيما أقول أعبر إلى نفق السياسة، التي لم أكن أعيرها أي اهتمام حقيقيّ، لكن كانت بعض الأفكار «البدائيّة» قد تسربت إلى عقليّ منها أو عنها، وكنت قد قرأت بعض الأشياء الصحفيّة عن الديمقراطيّة والماركسيّة والشيوعيّة والرأسماليّة.. وعن الصراعات والتناقضات بينها.. كما شاركت في بعض المظاهرات، لكن بعفويّة لا تحمل مضامين إيديولوجيّة، قطع فؤاد كلامي قطع الآمر الناهي قائلا:

...لا... لا – الحكم ليس حقا للشعب... الحكم لا يكون إلا الله ... البشر لا يعرفون سنن الكون والوجود... تتحكم فيهم الأهواء والعواطف... حقائق الوجود لا يعلمها إلا الله... وهو وحده له الحق في الحكم....

(1)*"طائر التم"*، ص137.

قلت: لا أدري.. أحتاج إلى مزيد من التحقيق والإبانة[1]

نعم لقد أنبأت تلك الحادثة عن طيور تُمّ صغيرة تفتّحت وكسرت قشرتها لتقول "لا" رغم كل المجريات المغرية بالانضمام إلى أيّ فصيل يظنّ أن في يده الطريق والبوصلة للخروج من حالة الفراغ والسكون، ومع ذلك فكلّ تلك المغريات لم تكن كفيلة ليعطّل فيها –المثقف التنويريّ مستقبلا– عقله وفكره، لم تفعل تلك التيارات فعلها بأجوبتها الجاهزة وخططها الورديّة، لكن ما ثبت عنها وعاينته تجربة فهمي، هو نيرانها غير الصديقة التي تطال كل من لامس ذيولها، لا سيما في ظل نظام بوليسيّ يهوى تلفيق التهم، التهم التي تلقى جُزافاً كعادة أيّ دولة فاشستيّة، وفي تلك اللحظة التي خبر بها جدعان معنى الاتهام بعد أن كان قد قرّ واستكان إلى رغبة أن يبقى طليقاً من إملاءات الحزب، يستيقظ في داخله ذاك الشعور المزعزع لأمنه، الشعور عندما تكون كائناً شبه شبحيّ بوصفك لاجئاً[2]، فأي موقف اتخذته في اللحظة التي أدركت فيها معنى أنك هلاميّ ولا إنسانيّ، يستيقظ الحسّ المؤلم والمفرط بالاغتراب والهُويّة المتزعزعة، ويستيقظ في وجدان فهمي جدعان هذا الشعور في كل مرة يواجه فيها حدثاً نفسيّاً.

أمّا الجزئيّة الأخرى المرتبطة بمخيم اليرموك، فهي جزئية الفقر، التي عايشها عن قرب وراقبها، والفقر بوصفه ثيمة هو الصفة والرداء الذي لا يفارق اللاجئ، فلا يمكن القطع بثراء لاجئ ما، غير أنّ من الممكن القطع بفقر اللاجئ وأقرانه، واللاجئ في خروجه الأول من مكانه يحرص أيّما حرص على عدم تكرار هذا الشعور وهذه الحالة بما هي عليه، نهاية الأمر نجد أنّ السيرة قدّمت أكثر من قراءة لدواخل فهمي جدعان وارتباطاتها بالعالم الخارجيّ، من غير تجاهل لثيمة الفقر المرتبط بحياة اللاجئ، حيث حضرت حضوراً مركزيّاً في هذه السيرة، متصلة بسياق البحث عن ملامح شخصيّة جدعان المتباينة، وهي الثيمة التي ألقى عليها باللوم لمرضه الذي أصاب بطنه.

طائر التُّمّ: بورتريهات لأساتذة عظام وتنقّلات فهمي جدعان

أولاً: لو أتيح لنا اختصار دورة النزوح من مكان إلى آخر، لكانت بالترسيمة الآتية وعلى كثرتها إلا أنّ السيرة بما أباحت، كانت قد أكدت أنّ فهمي جدعان ما يزال يحلّق بين هذه العواصم، حاملاً شوقه وحنينه وألمه فيها، لذا فهو طائر مهاجر يدور في مدارات هذه المدن.

(1) *"طائر التم"*، ص139.

(2) *"طائر التم"*، ص144.

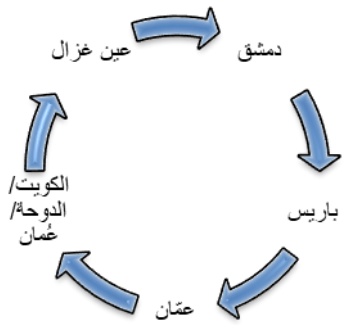

ومن خلال هذه المتوالية الظاهرة في سرديّة السيرة، يفهم أنّ فهمي جدعان لم يحمل سؤال الهُويّة، فالهُويّة بنت المكان الأول وبنت البلاد التي يحمل وصفها أينما ذهب، لكن جذورها البعيدة تفرض عليه دوما الذهاب أبعد، وحتى العناوين الرئيسيّة لهذه السيرة كانت قد أفضت بملامح في مسألة النفي الدائم، سواء اختياريّاً أم قسريّاً، فابتدأت بعنوان صريح ابن من يكون في مكانه الأول، لكن الأسماء التالية هي دلالات وإشارات على علاقات غير مستقرة بالمكان، من مثل حجارة رطبة، حجارة المخيم، وضفّة يسرى، أيّ ضفة أبعد من الضفّة الشرقيّة المتعارف عليها باسم الأردن، ضفّة يسرى تكاد تكون إحالة لأماكن أبعد أكثر، ثم سِفر خاص بالحب الذي يسكن الطائر، وأخيراً فقدان الرضا بفعل التحولات والحنين الدائم إلى أول منزل.

أضاءت السيرة بين سطورها حديثاً عن العلاقات المتشابكة بين المدن التي دخلها فهمي جدعان بعد خروجه من عين غزال، علاقات مرتبكة، يتراوح الخروج منها في شكله بين خروج طوعيّ وخروج قسريّ، فبالرغم من أنّ دمشق حضرت أُمّاً بديلة في السيرة بما ألقته عليه من دفء وأماكن، إلا أنّه كان لزاماً عليه بفعل الدراسة أن يفارقها فكانت هجرة اختياريّة، لكن الدولة البوليسيّة بنظامها آنذاك كادت تبتلعه في غياهب الجُبّ بسبب تُهم كاذبة فآل هذا الخروج إلى نفي جديد لم يستطع كسره إلا بالتفاف ما بغية حضور جنازة أمه، ثم عمّان التي دخلها ملاذاً وحصولاً على الجنسيّة دون أن يخسر ارتباطه بقضيته لو قبل الجنسيّة، لكن دواعي الحاجة وتذكّره أنهما ضفّة واحدة ذات تاريخ مشترك لا يمنع من قبول الجنسيّة والعبور من خلالها نحو أهدافه، إلا أنّ الأيام لاحقاً سيّرت له خروجاً غير مرغوب بفعل العلاقات الكيديّة التي أحاطته، ومكث في الكويت لمّا دخلها آمناً مسروراً حتى الغزو العراقيّ الذي فرض عليه معركة أخلاقيّة داخليّة، انتهت بأن يبقى مُكرهاً بعيداً بُعداً شبه دائم، ثم الدَّوحة التي لم يسهب في تجربته المكانيّة فيها، إذ عدّها محطة عمل، وهكذا بعد وضع بصمته، يعيد الحضور في هذه

العواصم، الكويت والدوحة وعمّان، لا يأخذه إليها الحب بقدر ما تدفعه الحاجة إلى المواصلة في بعض الأحيان، وحتى الاستقرار بجانب العائلة في مونتريال أخيراً.

ثانياً: يحضر في إطار الحصر الهوياتيّ حديث خاص عن الآخر، وهو ما أبدع فيه فهمي جدعان وأحدث، من حيث ذكره تفاصيل عن أشخاص غير مهمين، ومن حيث تقريب الصورة نحو علماء ومفكرين، فينبسط تفصيل كبير عن شخصية الدكتور عبد الكريم اليافي، وعبد الله عبد الدايم، وخليل خوري وغيرهم، بورتريهات قد يبدو أنه تحامل في بعضها وأخرى بدت عادلة ورحيمة جداً في بعضها الآخر، وقد يرجع سبب هذا التفصيل كأن يكون من باب العرفان، فحتى الذين أساؤوا لفهمي جدعان، كان لهم نصيب في سيرته، فلعلهم أسدوا خدمة مهمة له أسهمت في صقل شخصيته، ومن الجائز القول إن هذه الكتابة بما اكتنفتها من تناقضات عن الأشخاص الذين عرف بهم، هي من قبيل الثناء، لكن الداعي لذكرهم في إطار تأكيد انتمائه الهوياتيّ، هو الخيط الجامع بينه وبينهم، خيط القوميّة بما هي عليه من صورة مثاليّة بعيدة عن أهواء الأحزاب التي اتخذتها شعارا لكنها في المقابل قضت على كل ما يمكن أن يحقق هذه القوميّة، ويضيف إليها[1]، وهذه الوجوه هي ذاتها التي ساعدته للوصول إلى باريس "محطته الكبرى"، التي منها ستنطلق محطات أخرى، فحين يعرف أنّ فهمي يدرس هناك سيتم استدعاؤه بوساطة أصدقاء له من أجل التدريس في الجامعة الأردنيّة، ولمتابعة دراسته بسبب حضور الفقر مرة أخرى عاملاً يمنعه من المتابعة، سيكون تحت اختبار يقرر فيه الأصوب، ويجنح فيه إلى خيار القوميّة في سبيل متابعة تحقيق أحلامه، حيث يختار تقديراً للظروف قبول الجنسيّة الأردنيّة، لكن كل هذا لا يعفيه من الامتحانات المتمثّلة بالأحقاد السريّة بين الزملاء، هذه الأحقاد التي تطير به بعيداً ليحاضر في الكويت والدوحة وعمّان وفرنسا مرة أخرى، رغم استقراره في عمّان، وهذا الحنين الدائم بما يمليه طائر التُّمّ داخله، هو الذي يطير به أخيراً إلى مونتريال.

لقد شهد فهمي جدعان كل التحولات العربيّة في القضيّة الفلسطينيّة، ولتحفل سيرته كما كتبه بالتجليات الفلسفيّة في محاولة للإجابة عن سر الظروف التي أفضت لتكون أرضه دون غيرها، وقد أفصحت سيرته برغم كل هذه اللغة العالية، عن عدم قدرته الكاملة بالفصل بين ما هو فكريّ وما هو أدبيّ، مذكّرا بكتابات سارتر(Sartre) الأدبيّة التي لم تنفصل رحاها عن تخوم الفلسفة، وعليه نجد أنّ

(1) *"طائر التم"*، ص168-169.

ظهور شخصيته الإنسانيّة ما هو إلا ظهور وجد مساحته لتبزغ، فتكون السيرة في خلاصتها تشخيصاً للذات العميقة التي تسكن جدعان ولا تتكلم، ففهمي جدعان لا يني عن تَكرار السؤال الأساس القائم على عقلنة الأمور وقراءتها وتمحيصها والإفضاء بكل ما يخطر في البال من أفكار تحاول قراءة وتفسير الحال، نعم السؤال هو كيف يتقدم العرب؟

الخاتمة:

سعت الدراسة إلى بسط القول في خطاب السيرة وفي سياق حديثنا عنها بوصفها جزئيّة مهمة في هذا البحث، كانت وثيقة على سيرة كُتبت بتفرّد، تفرّد في الحكي والسرد وتفرد في شخصيّة السارد، فالسير عادة ما تكون المفتاح والوعاء المودع حمولة نكدة واعترافات تراجيديّة وفي أحيان أوصاف ليوميات وتفاصيل لا تكاد تهم في بعض الأحيان قارئها، ما يحيل بعضها إلى يوميّات حسب، لكن مذكرات فهمي جدعان تشبه أن تكون كتاباً متناصاً مع تقسيمات الكتب المقدَّسة له، حين منحها عناوينها ضمن أسفار سيرته، وأحسب أن تشرّبه للإرث الدينيّ وبحثه الطويل في الثقافة العربيّة قد ترك آثاره في هذا التقسيم، ولما تشغله فلسطين من مكانة مركزيّة وأثيرة في الذاكرة القوميّة والدينيّة لدى أهل الديانات الثلاث، إضافة إلى الوجدان الذي يمتح منه الكاتب في الوقوف على المنعرجات الحياتيّة والجمعيّة التي لازمته في عقود حياته الثمانية.

ولا يمكن تجاهل تمايز الخطاب في انطلاقاته المتلاحقة بين عام وخاص وخاص وعام، فالضرورات والمواضيع بماهيتها تفرض على جدعان أن يكون تارة لسان حاله وتارة أخرى لسان الآخرين.

ومما لا يمكن تلافيه هو اقتناص فرصة السرد للبحث عن أسباب العلل الداخليّة التي لازمت فهمي جدعان، والتي أجبرت بعضها إياه على السكون والتسليم بما يتحصّل له، فهي كما أكدنا سيرة في الهُويّة السيكولوجيّة المتعالقة بالغربة التي كتبت عليها، وهي سيرة لا تخلو من ومضات فكريّة لم يتخلّ عنها، رغم علو اللغة الأدبيّة العالية التي وجدت لنفسها أخيراً متّسعاً، لغة وصياغة غابت في ماضيها لدواعٍ أكاديميّة، لكنها لما حضرت، جاءت في قالَب كان بمثابة الاعتراف الأخير عن الموقف التي نحتته التجربة والأيام، ولولا هذه التجربة وهذا التَّرحال والنَّهل من منابع شتى، لما تمكن لفهمي جدعان من الوصول إلى قناعات منطقيّة تحميه من معركة التصنيف التي تكاد تحضر في بعض الأحايين وصمة عار بين المتقاتلين، ولذا نجده حتى في مساحته الخاصة يطرح أسئلة في الإصابات التي تصيب

اليسار والتنوير والجهات التي تدّعي أنها تحمل على عاتقها مسألة التقدم، لكنه وهو الذي كتب رسالة في أحوال المثقّفين العرب والحال المعاصر.

وتتبدّى خصوصيّة سيرة فهمي جدعان وتفرّدها أخيراً بالنسبة إلى السياق الفلسطينيّ في عدة نقاط:

– كانت السيرة كما سبق الحديث وثيقة لم تختزل في ثناياها صوتاً واحداً، وإنما أشركت الأطياف الممكنة في كتابتها.

– تتجلى أهميّة صدورها عن مفكّر مهمّ بما يقدّمه من تحليلات وتنظيرات متميّزة عما أصاب الفلسطينيّين، وفي صدورها كذلك عن مفكّر عاشرَ العالم الغربيّ وانتزع اعترافه تذكير بالدور الذي قام به مفكّرون أمثال إدوارد سعيد لحمل القضيّة إلى أبعاد عالميّة، وبالدور المنوط بهذه الشخصيّات للفت الانتباه إلى المسألة الفلسطينيّة، فالقضيّة الفلسطينيّة لا تحتاج إلى أرشيف كتبه أناس عاديون فحسب، وإنما إلى قامات تؤكد الروايات المناهضة وتحاربها بما لديها من محتوى ومعقوليّة في الكتابة.

المصادر والمراجع

إدل، ليون، *فن السيرة الأدبية*، ترجمة صدقي حطاب، ط1، دار العالم العربي، دبي، 2009.

بحراوي، حسن، *بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)*، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1990.

برهومة، عيسى، "خطاب الهوية في غربة الراعي لإحسان عباس"، *المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها*، جامعة مؤتة، الكرك، مجلد 17، عدد 4، 2021.

برهومة، موسى، "فهمي جدعان: التحرّر من الأغلال"، *موقع الأول نيوز*، سبتمبر، 2022.

بغورة، الزواوي، "الاعتدال الفلسفي في «طائر التمّ» لفهمي جدعان"، *القدس العربي*، لندن، 21 فبراير، 2021.

بوطيب، رشيد، "طائر التّمّ.. "حكايات جنى الخُطا والأيام" لفهمي جدعان أو تاريخ من لا تاريخ لهم"، *موقع لكم*، المغرب، 3 مارس، 2021.

التريكي، مالك، "برنامج فسحة فكر/ المفكر العربي فهمي جدعان"، لقاء مسجّل مع فهمي جدعان على موقع يوتيوب، *تلفزيون العربي*، 1 نوفمبر، 2016.

جدعان، فهمي، *حوار التراث والتقدّم*، حاوره مجموعة محاورين، ط1، منتدى شومان الثقافي، عمّان، 1998.

جدعان، فهمي، *طائر التمّ*، ط1، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، 2021.

الخالدي، روحي (ت 1331هـ/1913م)، *كي لا ننسى*، ترجمة حسني زينة، ط3، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 2001.

الخضراوي، إدريس، "بناء الهوية السردية"، *مجلة الكلمة*، القاهرة، العدد 183، أغسطس 2022.

دي بوفار، سيمون (ت 1406هـ/1986م)، *المثقّفون*، ترجمة جورج طرابيشي، دار الآداب، بيروت، (د.ت.).

الربيعو، محمد تركي، "باريس وعبد الرحمن بدوي ومدن الخليج... عن السيرة الذاتية للأكاديمي فهمي جدعان 2-2"، *القدس العربي*، لندن، 18 ديسمبر، 2020.

ريكور، بول، *الذات عينها الآخر*، ترجمة جورج زيناتي، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2015.

ريكور، بول، *الزمان والسرد*، ترجمة سعيد الغانمي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2006.

شرف، عبد العزيز (ت 1425هـ/2004م)، *أدب السيرة الذاتية*، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، القاهرة، 1992.

عبد الخالق، غسان (محرر)، *العقل النقدي – دراسات وأبحاث مهداة إلى فهمي جدعان*، ط1، فضاءات للنشر والتوزيع، عمّان، 2019.

العتيبي، طارق بن موسى، *الاغتراب –دراسة تأصيلية فلسفية علمية–*، ط1، دار الكتاب الجامعي للنشر والتوزيع، الرياض، 2018.

كاتب مجهول، "الفلسطينيون طيور التم كما يراهم فهمي جدعان"، *جريدة العرب*، لندن، العدد 11933، السنة 43، 7 كانون ثاني، 2021، على الموقع https://alarab.co.uk

القصراوي، مها، *بناء الزمن في الرواية العربية*، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2004.

أبو رمان، محمد، وآخرون، *الهوية العربيّة بين التفتيت والترميم*، تقديم حسن البراري، ط1، وزارة الثقافة الأردنية، عمّان، 2023.

نفاع، رامي، "فهمي جدعان: الطائر المسكون بالذكرى والفقد والنفي والألم"، *جريدة الشاهد الإلكترونية*، عمّان، 25 يناير، 2021.

‘Abd al-Khāliq (editor), Ghassān, *al-‘Aql al-Naqdī – Dirāsāt wa Abḥāth Muhdāh Ilá Fahmī Jad‘ān*, 1st edition, Faḍā’āt li al-Nashr wa al-Tawzī‘, Amman, 2019.

Abū Rūman, Mohammed and others, *al-Huwīyah al-ʻArabīyah Bayna al-Taftīt wa al-Tarmīm*, Introduce by Hasan al-Barārī, 1st edition, Ministry of Culture, Amman, 2023.

Anonymous Writer, "Al-Filasṭīnīyūn Ṭuyūr al-Tum Kamā Yrāhum Fahmī Jadʻān", *Jarīdat al-ʻArab*, Londan, no. 11933, vol. 43, 7 July, 2021.

Al-Khaḍrāwī, Idrīs, "Binā' al-Huwīyah al-Sardīyah", *Majallat al-Kalimah*, Cairo, no. 183, August, 2022.

Al-Khālidī, Rūḥī, (d. 1331A.H. / 1913A.M.), Kay lā Nansā, translated by Ḥusnī Zaynah, 3rd edition, Mu'assasat al-Dirāsāt al-Filasṭīnīyah, Beirut, 2001.

Al-Qaṣrāwī, Mahā, *Binā' al-Zamān fī al-Riwāyah al-ʻArabīyah*, 1st edition, al-Mu'assasah al-ʻArabīyah li al-Dirāsāt wa al-Nashr, Beirut, 2004.

Al-Rabīʻū, Muḥammad Turkī, "Bārīs, ʻAbd al-Raḥmān Badawī and Mudun al-Khalīj" … ʻan al-Sīrah al-Dhātīyah li al-Akādīmī Fahmī Jadʻān 2-2, *al-Quds al-ʻArabī*, London, 18 December, 2020.

Al-Turaykī, Mālik, "Barnāmaj Fusḥat Fikr al-Mufakkir al-ʻArabī Fahmī Jadʻān, liqā' musjjal maʻa Fahmī Jadʻān" ʻalá Mawqiʻ youtube, *Television al-ʻArabī*, 1 november, 2016.

Al-ʻUtaybī, Ṭāriq bin Mūsá, *al-Ightirāb Drāsh Ta'ṣīlīyah Falsafīyah 'lmīyah*, 1st edition, Dār al-Kitāb al-Jāmiʻī li al-Nashr wa al-Tawzīʻ, Riyadh, 2018.

āūṢĪẓḍḥṣḤīŪṭḌṬĀ

Baghūrah, al-Zawāwī, al-I'tidāl al-Falsafī fī" "Ṭā'ir altmm" li-Fihmī Jad'ān, *al-Quds al-'Arabī*, London, 21 February, 2021.

Baḥrāwī, Ḥasan, *Binyat al-Shakl al-Riwā'ī (al-Faḍā', al-Zamān, al-Shakhṣīyah)*, 1st edition, al-Markaz al-Thaqāfī al-'Arabī, Beirut, 1990.

Barhūmah, 'Īsā, Kheṭṭāb al-Huwīyah fī Ghurbat al-Rā'ī I'ḥsān 'Abbās, *Jordanian Journal of Arabic Language & Literature*, Mu'tah University, al-Karak, 2021, vol. 17, no. 4.

Barhūmah, Mūsā, Fahmī Jad'ān al-Tḥrrr min al-Aghlāl, *Mawqi' al-Awwal Nūiz*, September, 2022.

Būṭayyib, Rashīd, Ṭā'ir al-Ttmm. "Ḥikāyāt Janá al-Khuṭā wa al-Ayyām" Li-Fihmī Jad'ān aw Tārīkh min lā Tārīkh la-Hum, *Mawqi' lakum, Morocco*, 3, March, 2021.

De Bouvard, Simon, *The Intellectuals, translated by George Tarabishi*, Dār al-Adab, Beirut, (d.n.)

Idel, Leon, *The Art of Literary Biography*, translated by Sidqi Hattab, 1st edition, Dār Al-Alam Al-Arabi, Dubai, 2009.

Jad'ān, Fahmī, *Hiwār al-Turāth Wāltqddm, Ḥāwarahu Majmū'ah Muḥāwīrīn*, 1st edition, Muntadá Shūmān al-Thaqāfī, Amman, 1998.

Jad'ān, Fahmī, *Ṭā'ir al-Tum*, 1st edition, al-Ahlīyah li al-Nashr wa al-Tawzī', Amman, 2021.

Naffā', Rāmī, Fahmī Jad'ān, al-Ṭā'ir al-Maskūn bi al-Dhikrá wa-Faqid wa al-Nafī wa al-Alam, *Jarīdat al-Shāhid al-Iliktrūnīyah*, Amman, 25 January, 2021.

Ricoeur, Paul, *The Self Is the Other*, translated by Georges Zenati, 1st edition, Arab Organization for Translation, Beirut, 2015.

Ricoeur, Paul, *Time and Narration*, translated by Saed Al-Ghanimī, United New Book House, Beirut, 2006, Part Three. 1st edition.

Sharaf, ʻAbd al-ʻAzīz, *Adab al-Sīrah al-Dhātīyah*, 1st edition, al-Sharikah al-Miṣrīyah al-ʻĀlamīyah li al-Nashr – Lūnjmān, Cairo, 1992.